جمود الخطبة الموحدة يعمق سلفنة الخطاب الدعوي في المجتمع المصري

مقاضاة الشارع للخطب المفروضة على أئمة المساجد جرس إنذار قبل اللجوء إلى المتطرفين

أثــار قرار توحيــد خطبة صلاة الجمعة في مصــر آراء ومواقف متباينة، حيث دعم الكثيرون قرار وزارة الأوقاف انطلاقا من فكرة أن أئمة المساجد لا يمتلكــون رصيدا معرفيا كبيرا ولا يمكنهم تمرير آرائهم وقناعاتهم دون حســيب أو رقيب، فــي حين يحذّر الرافضون لهذا القــرار من أن اعتماد موضوعات موحدة دون دراســة الفروقات الفكرية والاجتماعية من منطقة إلى أخرى سيخلق للجماعات المتطرفة بيئة خصبة لاستقطاب المصريين.

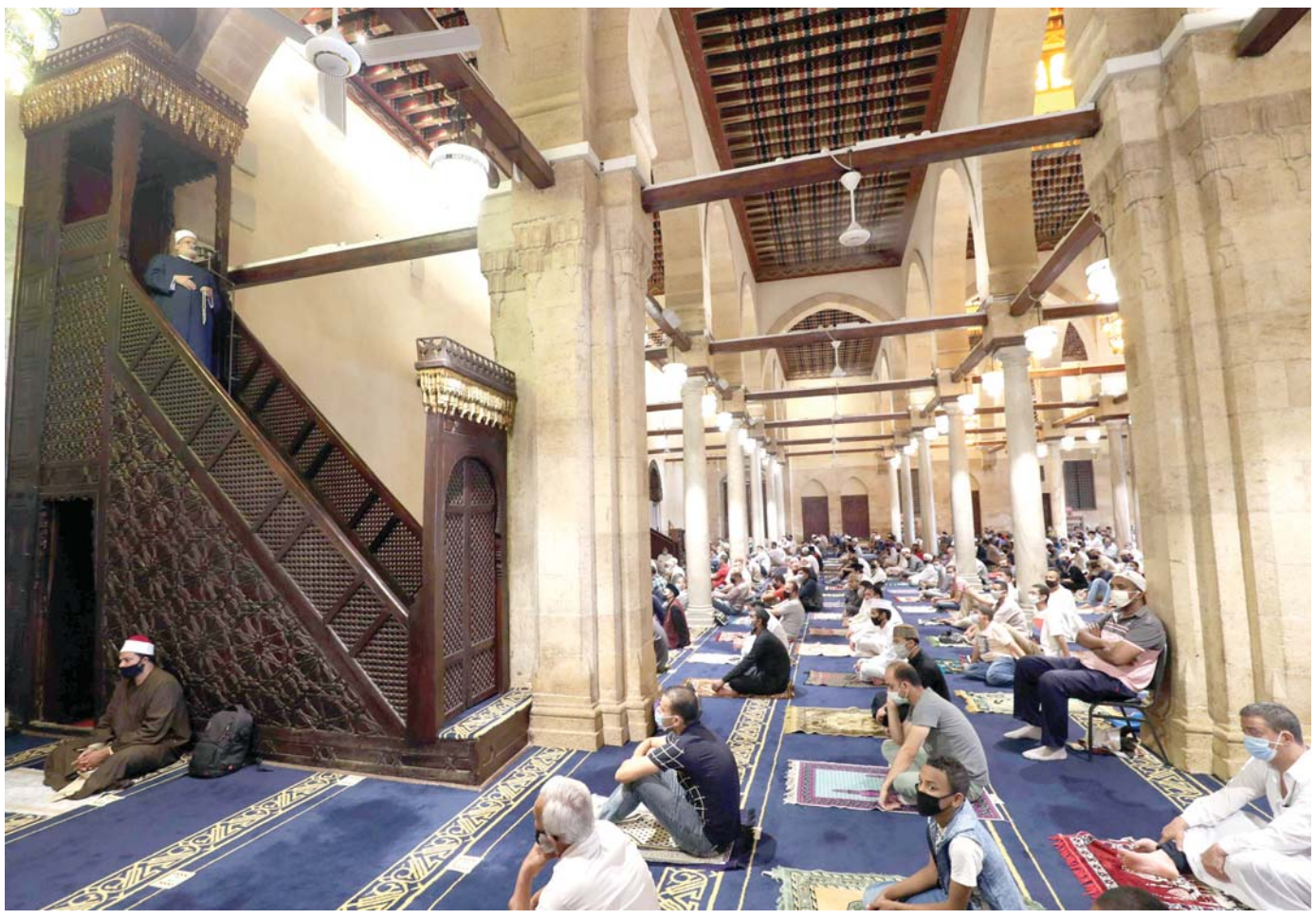

خطب منفصلة عن الواقع

أحمد حافظ
كاتب مصري

القاهـرة – أظهـر الحكـم القضائي الــذي صدر فــي مصر مؤخرا ويســاند موقف وزارة الأوقاف في تعميم الخطبة الموحدة على كل المســاجد أيام الجمعة أن الاجتهــاد علــى المنابــر صــار مــن الأمــور المســتبعدة كليّا في ظل تمسك المؤسســة الدينية بفرض خطبة مكتوبة على الأئمــة، لا يخرجون عن نصها وإلا تعرض من يخالفها للاستبعاد من العمل الدعوي.

ما يلفت الانتباه أن القضية التي نظرت فيها محكمة القضاء الإداري لإلغاء الخطبة الموحدة رفعها مواطنون عاديون رأوا في هذا الأسلوب تكريسا للجمــود الفكري وقتــلا للاجتهــاد والتنوع، لأن أغلب الخطب التي تعممها الأوقاف على شــيوخ المساجد تتناقض مــع متطلبــات النــاس واحتياجاتهــم اليومية بشــأن القضايــا والموضوعات الدينية الملحة.

مــا زالــت أزمــة الخطبــة الموحدة مســتمرة لأنهــا لا تناســب كل الفئــات باختلاف طباعها وعاداتهــا وتقاليدها وثقافاتهــا، فالــذي يقولــه الإمــام على منبر في مســجد بالقاهــرة يردده زميله داخل المسجد الواقع في منطقة نائية أو حدودية أو ريفية، وهو ما يجعل الناس يتذمــرون ويمتعضــون ويتعاملون مع الخطبة باعتبارهــا منفصلة عن الواقع الاجتماعي.

> الخطبة الموحدة كفيلة بالكشف عن المتناغمين فكريا مع التيارات المتطرفة خاصة إذا تعمدوا الخروج عن النص

جاء الحكــم القضائي ليغلق النوافذ أمــام إمكانيــة فرض التنوع فــي الآراء ومناقشــة القضايا الدينيــة الملحة التي يحتاجها الناس، وفق ظروفهم وحياتهم وبيئاتهــم. وترى وزارة الأوقاف أن هذه الخطــوة تســاعدها فــي القضــاء على التطــرف الفكــري وتقطع الطــرق أمام بث الســموم وتبعد الدين عن التوظيف السياسي على المنابر.

وقالــت المحكمــة إن التحديــات المعاصرة كشــفت أن التشــدد والإرهاب كانــا نتيجــة الانحــراف عــن مفاهيــم الديــن الصحيــح والخلل الــذي أصاب مســار الفكر الديني مما تتعين معه على الدول الإسلامية والعربية محاربة الفكر المتطرف لدعاة الغلو الذين يستخدمون الشــباب وقودا لفكرهم المنحرف بضبط الخطاب الدعوي.

وبررت حكمها بــأن الواقع المصري كشــف عقب ثورتي الخامس والعشرين مــن ينايــر 2011 والثلاثين مــن يونيو 2013 أن بعــض خطبــاء المســاجد يوم الجمعــة اســتخدموا المنابــر لتحقيق أهــداف سياســية، ووظفــوا موضــوع الخطبة لتحقيق أغراض حزبية وأخرى تحريضية وشق الصف عبر المنابر (في إشــارة إلى جماعة الإخوان والسلفيين) بمــا يخــدع البســطاء، علــى الرغم من قدســية المســجد ومنع إقحام النواحي الدينية في السياسة.

ضرورة مجتمعية

أكد عبدالغنــي هندي عضو المجلس الأعلــى للشــؤون الإســلامية في مصر أن تطبيــق الخطبة الموحــدة عقب ثورة الثلاثين من يونيو وإسقاط حكم الإخوان كانا ضروريَــيْن لأن المجتمع وقتها دخل مرحلــة انقســام غير مســبوقة، وكانت المعالجة الدعوية في المســاجد سياسية بامتياز، ويفترض بزوال هذه الحقبة أن يفسح المجال للخطيــب بضوابط عامة ومحظــورات لا يقتــرب منهــا لتحقيق المزيد من الانضباط على المنبر.

وأضــاف لـ"العــرب" أنه صــار من الواجــب إعــادة النظــر فــي الخطــاب الدعوي الموحد بالمســاجد، لأن الخطبة الموحــدة تعــوّد الإمــام علــى الاتكالية ولا تدفعــه لزيــادة معارفــه بالمجتمــع ولا تســتطيع وزارة الأوقــاف اختيــار موضوعــات جديــدة لاضطرارهــا إلى التكرار، وهذه كارثة كبرى تســتخدمها الجماعات المتطرفة لتكون بالنسبة إليها أرضية خصبة للنشــاط في المجتمع مرة أخرى.

ورغــم إقــرار القضاء بــأن الجمعة شرعت لتكون جرعات إيمانية أسبوعية تعالج قضايــا وهموم النــاس وتعطي للمســلم طــوق النجاة مــن الوقوع في المعاصي والآثــام، لكنه قضــى بأحقية صانــع القــرار فــي توحيــد موضــوع الخطبــة لمواجهــة المخاطــر وترســيخ قيــم المواطنة وليس من حــق الخطيب كمؤتمن أن يوجه الناس إلى ما يشتهي أو يرغب فيه.

ويــرى مؤيــدون أنه ليس مــن دور الخطيــب فــي المســجد أن يملــي على الناس قناعاته الشــخصية في المجالات المختلفة فتشتد الخطورة من فوق منابر الجمعــة ما يوهم عامــة الناس بأن هذا هو الحق المبــين، لأن ذلك التوجه وهذه التصرفات تشــدد من نــوع آخر بفرض وجهــة النظــر الواحدة كــرأي مقدس. مــا زالــت المســاجد فــي مصــر، رغــم امتعاض النــاس من إحكام قبضة الأمن والأوقــاف عليهــا، مــن أهم الســاحات التــي يمكــن من خلالهــا التأثيــر على أفــكار المواطنيــن وتوجهاتهــم الفكرية والحياتيــة والســيطرة علــى علاقاتهم بالآخرين، وإحــدى أدوات الحكومة في تشــكيل الرأي العام في المناطق الريفية والشــعبية لارتباط الأغلبيــة بالتعاليم الدينية التي يتم نشرها في المساجد.

أزمة المؤسســة الدينية العميقة في مصر تكمن في أنها تعاملت مع إنصاف القضــاء لها في شــأن فرضيــة الخطبة الموحدة باعتبارها تســير على الطريق الصحيــح فــي التعامــل مــع الخطاب الدعوي، ورأت أن الحكم بمثابة شــهادة تقديــر لهــا علــى نجاحها فــي إقصاء المتطرفين والمتشــددين بعيدا عن منابر المســاجد دون إدراك لخطورة الاستمرار علــى نفس النهــج ودون تطوير يرضي الناس.

الهروب إلى الخلف

يؤيــد الكثيــر مــن الرافضيــن لمنح الحرية المطلقة للخطيب وإمام المســجد في طرح وجهات نظره على الناس، تدخل المؤسســة الدينية فــي تحديد موضوع خطبــة الجمعة، شــريطة أن يكون فيها الحــد الأدنى مــن التنــوع والتناغم مع متطلبات النــاس الحياتية والمجتمعية، بعيدا عــن انتقاء موضوعــات روتينية عقيمــة تثيــر احتقــان رواد المســاجد وتجعلهم ينفرون من خطابها الدعوي.

قال عماد الســيد، وهو معلم مصري يعيــش في إحــدى قرى ريــف محافظة دمياط شــمال القاهرة، إن ابتعاد خطبة الجمعة عن صميم احتياجات الناس من الخطــاب الدعوي قد يدفــع الكثير منهم للهروب إلى الخلف والعودة إلى شيوخ الســلفية الذيــن يجيدون التســلل إلى الشريحة التي تبغض الخطبة الرسمية بحكم أنها لا تتناســب كليا مع تطلعات رواد المساجد ولا تجيب عن أسئلتهم.

وأوضــح لـ"العــرب" أن إطــلاق العنان لأئمة المساجد مرفوض، فأغلبهم يحصلــون علــى معلوماتهــم مــن كتب التراث القديمــة التي تجاوزهــا الزمن وفــي نفس الوقت ليس منطقيا أن يكون البديــل تعميم خطبة جامــدة بعيدة عن الواقــع، تتحدث عــن نــواح اقتصادية وأحيانــا تتطــرق إلــى أمور سياســية وتنموية، لأن ذلك بعيد عن دور الخطيب.

وحسب فحوى الكثير من خطب يوم الجمعة التي تنشرها وزارة الأوقاف في وســائل الإعلام كنوع من زيــادة معرفة النــاس بمضامينهــا، نادرا مــا تتطرق إلــى قضايــا اجتماعية ملحة وشــائكة لزيادة التثقيف بأمور حياتهم والتطرق إلــى موضوعات مثل الختــان والطلاق والعلاقــة الزوجيــة وتربيــة الأبنــاء واحترام المرأة والميراث وحرية العقيدة وغيرها.

وقــد تكــون الخطبة مرتبطــة غالبا بقضية ذات أبعــاد اجتماعية لها جذور سياسية، مثل الحديث عن ضرورات دعم التنمية، ومساندة الدولة في حربها ضد الإرهــاب، وتجييش الــرأي العام خلف صانع القــرار، وكلها قضايا يفترض ألا تتم مناقشــتها على المنابر لأنها تتماسّ مع السياسة من نواح مختلفة، في حين أن الخطبة الموحدة فكرة وُلدت بالأساس لتقضي على السياسة في المساجد.

ويعتقــد مراقبون أن ضبــط خطبة الجمعــة لا يتعارض مع تجديد الخطاب الدعوي ولا يقتل الاجتهاد، ويتطلب من صانع القرار المسؤول عن إدارة وتنظيم المساجد ألا يفرض على الناس سماع ما تريد الحكومة قوله لهــم، بل يتم انتقاء موضوعات عصرية ومناقشة قضايا تهم الشــريحة الأكبر من الناس لمنع لجوئهم إلى استفتاء المتشددين حولها.

ويشير هؤلاء إلى أن الخطبة الموحدة يمكــن أن تقــوم بــدور فعال في نشــر وسطية الإسلام من خلال ضبط السيولة التــي تحدث في المســاجد عبــر فصائل دينية بعينها، كما أنها كفيلة بالكشــف عــن المتناغمــين فكريــا مــع التيــارات المتطرفة، خاصة إذا تعمدوا الخروج عن النص وإلقاء خطــب بقناعات ذاتية، ما يتيــح لوزارة الأوقــاف إبعاد هؤلاء بعد الكشف عن ميولهم المتشددة.

يكاد لا يمر يــوم جمعة في مصر إلا وتعلن وزارة الأوقــاف أنها قررت إبعاد إمام مســجد عن العمل الدعوي لمخالفته الخطبــة الموحدة والخــوض في قضية مجتمعية جدلية باختيار شــخصي منه بشكل يتناقض مع التصورات التي يتم تطبيقها في المساجد، وهي غير مسموح بالتمرد عليها.

قضايا تتناغم مع المجتمع

أشــار منيــر أديــب الباحــث والمتخصــص فــي شــؤون الجماعــات المتطرفة إلــى أن الجمود الذي يصاحب بعــض موضوعات خطبة الجمعة يصب في صالح العناصر المتطرفة فكريا، وهذا ما يجب أن تنتبه إليه المؤسسة الدينية، ويجعلهــا مطالبة بانتقــاء موضوعات تتناســب مع البيئــة بتنوعهــا الفكري والثقافــي وتتــلاءم مــع خصوصية كل منطقة.

وذكــر فــي تصريــح لـ"العــرب" أن الكثيــر مــن الخطبــاء لا يســتطيعون التحكم في كلامهــم ونبرتهم على المنبر ســواء بالإطالة أو الخــروج عن النص والســقوط في ورطة الخوض في قضايا داخليــة وخارجية، مــا يتطلب أن يكون موضوع الخطبة نفســه مقنعــا للإمام قبــل الجمهور، فــإذا كان مجرد قارئ لما يُملــى عليــه دون اقتناع ســوف يضيع الغــرض، وهــو تثقيــف النــاس دينيا بخطاب دعوي وســطي عقلاني يناسب روح العصر.

وإذا كانت الشريحة المتدينة بالفطرة ترى في الخطبة الموحدة تأميما للمساجد فإن وزارة الأوقــاف عليها معالجة هذه النظرة السلبية بالعمل على تطوير أداء الدعاة والأئمة والخطباء بما يتلاءم مع متطلبات العصــر، لأن محاربة التطرف الفكــري ليس بحصار مضمون الخطبة، بــل بتحســين لغــة الخطــاب ومثالية الطريقة التي يتم بها طرح القضية على الجمهور.

مهما حاولــت وزارة الأوقاف ضبط الخطاب الدعــوي بالتحكم في مضمون الخطبــة، دون إقصــاء الأئمة والخطباء المتشــددين ضمن عناصرهــا، لن تنجح في المهمة بشكل كامل، لأن العبرة ليست في الدقائق التي يقضيها الخطيب على المنبر ويلقي على مســامع الناس فحوى الخطبــة لكن في كونه يتعامل بعدها مع الجمهور بعقليته المتطرفة التي يخفيها عن المؤسسة وهو على المنبر.

وتؤشــر التصريحــات الحــادة التي يطلقهــا وزيــر الأوقاف المصــري مختار جمعة مــن وقت إلى آخر، بعدم الســماح لصعــود أي شــخص متطــرف على منبر المســجد، علــى أن هنــاك طوابيــر مــن المتشددين تتخفى في عباءة الإمام الملتزم بالخطبة، لكنها تمارس التشدد بعيدا عن أعين المؤسســة الدينيــة، وهؤلاء ما زالوا معضلة كبرى في ســبيل تحرير المساجد المصرية والمجتمع من العقليات المتحجرة.

وعــادة ما تكــون النبــرة المعارضة للخطبــة الموحدة فــي المناطق المعروف عنها التمركز الســلفي والإسلامي على غرار القرى والنجوع والمناطق الشعبية والحدوديــة، باعتبار أن هــذه العناصر اعتــادت تقديم نفســها بديــلا عن دعاة الحكومة أصحاب لغة الخطاب الرسمي على المنابر الذين يقولون ما يُملى عليهم ولو كانوا على غير قناعة بمضمونه.

عبدالغني هندي

الجماعات المتطرفة قد تستغل جمود الخطبة للنشاط في المجتمع

منير أديب

الأوقاف مطالبة بانتقاء موضوعات تتلاءم مع خصوصية المناطق

ويســيطر الســلفيون علــى الكثير من المســاجد الصغيرة والزوايا التي لا تخضع لوزارة الأوقــاف، وتكون مكتظة بالمصلــين في أيــام الجمعــة ويفترش الناس الشــوارع حولها بشكل يستدعي الحيــرة والدهشــة، وإذا ســألت أيّا من روادها عن السبب يبرر ذلك بأن الخطيب يتحــدث بحرية ويختــار موضوعا يهم النــاس بعيدا عن الورقة التي يقرأ منها الأئمــة التابعون لــوزارة الأوقاف، وفي النهايــة يكون إمام هــذا المنبر من ذوي اللحى الطويلــة والعمامة البيضاء، أي من المنتمين إلى التيار الســلفي صراحة أو ضمنيا.

وتفرض هذه المخاوف على المؤسسة الدينية ألا تتعامل مــع تكريس القضاء للخطبــة المكتوبــة كانتصار سياســي وقانونــي لهــا لأن تناقــض المنابر مع احتياجــات الشــارع يقود إلــى نتائج عكســية، فالعبــرة ليســت فــي إرضاء الســلطة بتمرير مضامــين للخطب ذات أبعــاد اقتصادية وسياســية وتنموية، وإنمــا هــي فــي اســتمرار التعامل مع المساجد كأداة لتشكيل الوعي المجتمعي قبل استبدالها بمنابر التشدد.

بيئة خصبة لانتشار التطرف